# الحياة الحضارية في إمارة أنطاكية النورماندية

عبد الرحمن محمد كنجو
قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،
جامعة إدلب
سوريا

**ملخص باللغة العربية:**

لا تقل الحياة الحضارية أهميةً عن الحياة السياسية، فكلاهما مكمل للآخر، يتضمن البحث الحديث عن نظم الحكم والإدارة في إمارة أنطاكية، إلى جانب الأوضاع العسكرية من تحصينات وأسلحة وقلاع، والحياة الاقتصادية من تجارة وصناعة وزراعة، والحياة الفكرية من لغة وثقافة، والحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد إلى جانب انقسام المجتمع إلى طبقات، وأخيراً الحياة الدينية التي لعبت دوراً كبيراً في الحروب الصليبية.

**الكلمات المفتاحية:** الإدارة، العسكرية، الاقتصادية، الدينية

**ملخص باللغة الإنجليزية:**

Civilizational life is no less important than political life, as each complements the other. This study examines the systems of governance and administration in the Principality of Antioch, in addition to military conditions, including fortifications, weapons, and castles; economic life, including trade, industry, and agriculture; intellectual life, including language and culture; and social life, including customs and traditions, as well as the division of society into social classes. Finally, it addresses religious life, which played a major role in the Crusades.

**Keywords**: (Administration, Military, Economic, Religious)

يتوقع الكثيرون أن الحروب الصليبية ليست إلا حروب متصلة لمدة قرنين من الزمن بين المسلمين والغرب الأوروبي، ولكن الثابت أن هذه الحروب مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها من دينية واقتصادية وعسكرية، كانت قبل كل شيء مجالاً واسعاً التقى فيه المشرق العربي الإسلامي بالغرب الأوروبي.

## 1-نظم الحكم والإدارة:

لقد طبق الصليبيون في أنطاكية كثيراً من النظم الإقطاعية التي خبروها وعاشوها في الغرب الأوروبي، وكان أمراء أنطاكية يتوارثون منصب الإمارة وفقاً للقانون الإقطاعي المنتشر في أوروبا(1).

كانت المؤسسات في إمارة أنطاكية تماثل مثيلاتها في مملكة بيت المقدس، فكانت هناك محكمة عليا ومحكمة برجوازية، وكان الأمير يسيطر على أهم مدن الإمارة والكثير من أراضيها، وكان لكل من أنطاكية واللاذقية وجبلة حاكمها الذي كان مسؤولاً عن كامل الأمور، والأمير هو الذي يعينه ويعفيه من منصبه، وكان هؤلاء غالباً ما يعينون من الصليبيين الوافدين إلى أنطاكية وليس من قبل السكان المحليين، كما أنهم اعتمدوا على نظام الإمبراطورية البيزنطية في تقييم الضرائب وجمعها(2).

كانت إمارة أنطاكية مستقلة عن كل من مملكة بيت المقدس والإمبراطورية البيزنطية، غير أنها كانت تتبع اسمياً للمملكة بيت المقدس، وتولى ملوك بيت المقدس الوصاية على عرش الإمارة عدة مرات في عهد كل من الملوك، بلدوين الثاني وبلدوين الثالث وفولك الأنجوي، فقد كانت مملكة بيت المقدس بمثابة الأم الراعية للإمارات الصليبية، وفي فترات ضعف الإمارة خضعت للإمبراطورية البيزنطية وتجلى ذلك في معاهدة ديفول حيث اشترط الإمبراطور على النورمانديين بالخضوع له، وتعيين بطريرك يوناني في أنطاكية، ومن ناحية الخدمات، كانت المياه في أنطاكية تنتقل من عيون دافني إلى كافة المنازل من خلال القنوات والأنابيب(3).

وقد لعبت النساء دوراً كبيراً في الإمارات الصليبية، فقوانين مملكة بيت المقدس لم تحرم النساء من وراثة العرش، أما في أنطاكية فقد وقف النبلاء ضد رغبة الأميرة أليس في استلام الحكم، مما أدى إلى كثير من المشاكل(4)، وقد سمحت قوانين الصليبيين للمسلمين والسريان والأرمن بإنشاء محاكم خاصة بهم، وفقاً لعاداتهم وتقاليدهم(5).

وتغير كثيراً المظهر المعروف للفارس الغربي والنبيل الأوروبي المحارب، ولن تعد صورته كما كانت في الغرب الأوروبي، بل إن الملكية نفسها نزعت إلى تقاليد شرقية بحتة، فجلس الملك متربعاً على السجاجيد، وعلقت الستائر وفرشت البسط، وخرج الأمير في المواكب والاحتفالات الرسمية في أبهة الملك وعظمته(6).

وكانت اللغة المستخدمة في إمارة أنطاكية النورماندية تتمثل أولاً بالفرنسية والإيطالية، بالإضافة إلى لغات المنطقة من أرمنية وعربية، فقد عزم كثيرٌ من الصليبيين من نبلاء وتجار على تعلم اللغة العربية(7).

---

(1) – عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، د-م، 1963م.، ج2، ص 479-480.

(2) – ستيفن رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، تر: نور الدين خليل، القاهرة، ط2، د-ت، ج2، ص 355-356.

(3) – المرجع السابق، ج2، ص 365.

(4) – الحويري، محمود محمد: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، دار المعارف، القاهرة، 1979، ص 78.

(5) – الشيخ، محمد محمد مرسي: عصر الحروب الصليبية في الشرق، 2004، j4now، ص 545.

(6) – المرجع نفسه، ص 551.

(7) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج3، ص 367.

## 2-الحياة العسكرية:

لم تكن الخدمة العسكرية في إمارة أنطاكية النورماندية محصورة في أيام أو أوقات محددة، وإنما تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في الشام، وما كان بينهم وبين المسلمين والبيزنطيين من عداء وحروب مستمرة، أن تكون الخدمة غير محددة المدة[8].

من ناحية الأسطول اعتمدت أنطاكية على أساطيل المدن الإيطالية حيث لم تكن تمتلك غير أسطول صغير[9]، وتألف الجيش الصليبي في إمارة أنطاكية النورماندية من قسمين أساسين، الفرسان والمشاة، بالنسبة للفرسان ارتبطت قلتهم العددية بضحايا المعارك التي خاضوها ولا سيما موقعة حران وساحة الدم، أما سلاح المشاة فقد تكون معظمه من عامة الصليبيين الذي قدموا مع الحملة الصليبية الأولى.

بعد ضعف إمارة أنطاكية وفناء معظم جيشها، الذي لم يعد بوسعه التصدي لهجمات نور الدين محمود، ولسد النقص في القوات، اعتمد بوهيموند الثالث على الجماعات الدينية العسكرية مثل الداوية والاسبتارية في الدفاع عن المعاقل والحصون ولا سيما الحدودية [10]، وقد جمعت هاتان المنظمتان بين الحياة الدينية والحياة العسكرية، ولعبت دوراً كبيراً في حياة الصليبيين [11]، وقد كانت هذه الجماعات بمثابة جيش دائم للإمارة، وقد اكتسبت شهرة واسعة، وكان هؤلاء الفرسان يشبهون المرابطين من المسلمين، فيهبون أنفسهم للقتال ومراقبة العدو، وكان لهؤلاء الفرسان زي خاص وأنظمة خاصة بهم [12]، فمنح فرسان الداوية كثير من المناطق ولا سيما حصن بغراس مدخل أنطاكية الشمالي تجاه كيليكيا، في حين منح فرسان الاسبتارية أجزاء واسعة في جنوب الإمارة [13].

وقد تجلت الاستراتيجية العسكرية للصليبيين في أنطاكية في عدة نقاطها:

أولها: المحافظة على الأسوار والحصون والقلاع، بهدف الاستفادة منها في قتالهم مع المسلمين، واستخدامها كسياج لحمايتهم، لا سيما أنهم غرباء عن المنطقة، وسط محيط كبير من الأعداء، وقد ظهر ذلك في الخطة التي وضعها بوهيموند النورماندي أثناء حصار أنطاكية، حيث تمكن من الاتصال مع فيروز الأرمني الذي ساعدهم على دخول المدينة، ولدى امتلاكهم لها، عملوا على الاستفادة من حصونها وأسوارها وأبراجها في التصدي لحملة والي الموصل كربوقا، حيث حالت متانة أسوارها دون اقتحامها مما دفع كربوقا إلى إطباق الحصار على المدينة من كل جهاتها "أصبحت أنطاكية محاطة بكل نواحيها بصورة لم يستطع الصليبيون المحاصرين داخل أسوارها مغادرتها، كما أعجزت من كان خارجها عن دخولها والوصول إليهم"[14].

كما تجلى ذلك أيضاً بشكل واضح في موقعة حران سنة 498هـ/1104م فعند وصول جموع الصليبيين الغفيرة إلى هدفها، اشتد الخلاف بين أمراء الجيش الصليبي أمام أسوار حران، فمنهم من يريد الانقضاض والهجوم على المدينة مباشرة بهدف اختصار الوقت، في حين رأى البعض الآخر، فرض الحصار على المدينة وعدم اقتحامها بهدف المحافظة على الأسوار وتحصينات المدينة لاستخدامها كخط دفاع عن المدينة بعد الاستيلاء عليها " ظانين أن الخوف سيدفع الحامية إلى الاستسلام..... إذ كان المسلمون داخل المدينة لا حول لهم ولا قوة"[15].

---

(8) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج2، ص 479.

(9) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 362.

(10) – عطية، حسين محمد: إمارة أنطاكية الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1989م، ص 156-157.

(11) – أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، د-م، ط10، 1986م، ص 450.

(12) – المطوي، محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغر الإسلامي، بيروت، ط2، 1982م، ص 90-96.

(13) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج2، ص 653.

(14) –وليم الصوري: تاريخ أعمال الفرنجة المنجزة فيما وراء البحار، تر: حسن حبشي، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 1991م، ج1، ص383-384.

(15) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 72.

ثانيها: في بناء الأبراج بهدف تسهيل عملية اقتحام واحتلال المدن "وكان رجالنا قد شيدوا أمام المدينة عدة قلاع، استخدموها للقيام بهجمات متعددة استطاع رجالنا أثناءها أن يصدوا بكل بسالة الأتراك"[16].

وخلال فترة الحصار الطويلة لأنطاكية لم تتوقف القوات الإسلامية داخل المدينة عن هجماتها على المعسكر الصليبي، الأمر الذي دفع قادة الحملة الصليبية إلى عقد اجتماع للتشاور في هذا الأمر ولتشديد الحصار " يجب علينا قبل أن نقدم على حرب تودي برجالنا أن نشيد حصناً على المحمرة الواقعة أمام المدينة حيث يوجد الجسر ومن هنا ربما تمكنا بدورنا من تضييق الحصار على عدونا"[17].

وعندما فشل الصليبيون في اقتحام مدينة معرة النعمان، أمام أسوارها العالية، ودفاع أهلها، فرضوا حصارهم عليها " وحاصروا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين، وقطعوا الأشجار"[18]، في محيط المعرة، واستخدموها في بناء برج خشبي بحيث يكون أعلى من أبراج المعرة، لتشديد الحصار وتسهيل عملية الاقتحام، وبذلك أصبحوا أعلى من المسلمين، وقتئذٍ تمكن الصليبيون من إحداث ثغرة في سور المدينة، الأمر الذي سمح لهم بالتسلل من هذه الثغرة، وسيطروا على السور، ودخلوا المدينة.

ثالثها: مواجهة خطط أعدائهم، ومنعهم من استخدامها، حيث اعتاد المسلمون في معاركم على الإطباق على أعدائهم ورميهم بالسهام من كل الجهات، وظهر ذلك جلياً في نجدة أمير حلب لأنطاكية، حيث يرجع سبب هزيمة القوات الإسلامية إلى انكشاف خططهم، والخطة المضادة التي وضعها بوهيموند الذي تمكن من فرض مكان المعركة على القوات الإسلامية، ووقوعهم في ساحة ضيقة لا يستطيعون فيها الانتشار والإحاطة بالجيش الصليبي، وعدم تمكنهم من رشق الصليبيين بالنبال[19].

كما تجلى ذلك في خروج الصليبيين المحاصرين في أنطاكية لمواجهة حملة كربوقا "ولما أصبحت جميع الكتائب خارج المدينة صمم الزعماء على نشر العسكر حتى الجبال التي تبتعد عن أنطاكية قرابة الميلين، واحتلال السهل بأكمله مخافة أن يحول العدو – أي المسلمين – بأعداده الضخمة خلسة أو عنوة بين قواتنا وبين المدينة.... كما أنه لا يستطيع بهذه الطريقة – كما هي عادته – الاحداق برجالنا من كل جانب، فيقطع خط الرجعة على المتسللين إلى المدينة"[20].

رابعها: العمل على رفع الروح المعنوية للمقاتلين، وتجلى ذلك في حملة كربوقا، حيث عملت قصة الحربة التي أدعى أحد الصليبيين أن وجد الحربة التي قتل فيها السيد المسيح، دوراً كبيراً في رفع الروح المعنوية لهم، فبانتشار هذه القصة بين صفوف الصليبيين ظنوا أنهم منصورين، " وكان معهم راهب مطاع فيهم وكان داهية من الرجال فقال لهم إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالفيسان الذي بأنطاكية وهو بناء عظيم فإن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق، وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان"[21]، لا شك أن سماع الصليبيين بهذا الخبر سوف يثلج صدورهم ويفرحها أيما فرح، ومع أن القصة أغرب من الخيال، إلا أن الهدف المراد منها هو رفع الروح المعنوية لدى الصليبيين

(16) –فولتشر أوف تشارترز: تاريخ الحملة إلى القدس، الموسوعة الشامية، إشراف سهيل زكار، دار الكتب، دمشق، 1995م، ج6، ص 342.

(17) –المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة، الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ج6، ص 120.

(18) –ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت: 660هـ): بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، 1989م، ج2، ص 506.

(19) – حومد، أسعد محمود: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، دمشق، ط1، 2002م.، ص 109.

(20) – وليم الصوري: المرجع السابق، ج1، ص408-409.

(21) –ابن الأثير، علي بن محمد (ت: 630هـ): الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م، ج9، ص15.

في ظل هذه الظروف القاسية التي يعيشونها " ظل الناس يقاسون هذه الظروف غير المحتملة سنة وعشرين يوماً متتالية، أطمأنت بعدها قلوبهم"[22].

خامسها: في اشتراك الأمراء والنبلاء ورجال الدين في المعارك التي خاضها الصليبيين، مما يقوي عزيمة مقاتليهم ويرفع الروح المعنوية لديهم، فقد اشترك بوهيموند وتانكريد في موقعة حران، وخر روجر صريعاً في موقعة ساحة الدم، وقتل بوهيموند الثاني في منطقة كيليكيا، وقتل ريموند في موقعة أنب سنة 544هـ/1149م، وأسر رينو دي شاتيون وبوهيموند الثالث " قام بوهيموند واصطحب معه جميع من لهم من الصدارة في إمارته، كما اصطحب معه تانكريد وبلدوين كونت الرها وقريبه جوسلين، وانضم بعضهم إلى بعض وانعقد اجماعهم على عبور الفرات ومحاصرة حران القريبة من الرها"[23].

كما لعب رجال الدين دوراً كبيراً في تشجيع عامة الناس على القتال، واكتسبوا محبة الناس، ففي معركة حران سنة 498هـ/1104م اشترك كل من برنارد بطرك أنطاكية ودايمبرت بطرك القدس، وبندكت بطرك الرها[24].

سادسها: قيام الكيانات الصليبية بالتنسيق مع بعضم البعض عندما تتعرض إحدى إماراتهم للخطر، وتجلى ذلك في موقعة حران والصنوبرة وقلعة بارين وموقعة دانيث.

كما تجلى أيضاً في التعاون مع المدن الإيطالية ولا سيما جنوة في بناء حصن المحمرة في أنطاكية، وفي حصار اللاذقية، "وقد وصل إلى ميناء السويدية أسطول جنوي يحمل إمدادات مهمة للصليبيين"[25].

سابعها: الاستمرار على سياستهم في التوسع، وظهر ذلك في حصار حلب عدة مرات، ومحاولة إقناع الملك الفرنسي والإمبراطور البيزنطي في اقتحام حلب.

وقد أدى استيطان الصليبيون في الشرق مع مرور الزمن، إلى افتقادهم كثيراً من تعصبهم وحماستهم الدينية، وبدأ تعصبهم الديني يفتر بمضي الوقت، ويحل محله نوع من الاعتدال، والدليل على ذلك ما حدث من تحالفات تضم أمراء مسلمون وآخرون صليبيون ضد حلف ثاني مكون من مسلمين وصليبيين، حيث ربطت المصالح السياسية والمكاسب الاقتصادية بين الأمراء الصليبيين ونظرائهم المسلمين[26]،

وتحول الصليبيون بمرور الزمن من أصحاب قضية إلى أصحاب أرض وهذا ما أضعف العامل الديني كثيراً، ففي عهد تانكريد المؤسس الثاني لإمارة أنطاكية النورماندية، انقسمت كيانات شمال بلاد الشام إلى حلفين متباينين تجمعهم المصالح، الأول مكون من جاولي سقاوة أمير الموصل المخلوع وبلدوين صاحب الرها، والثاني مؤلف من رضوان صاحب حلب وتانكريد أمير أنطاكية، " اجتمع جاولي سقاوة وجوسلين الفرنجي على حرب تانكريد صاحب أنطاكية واستنجد تانكريد بالملك رضوان، فأمده بعسكر حلب والتقوا"[27]، ودارت المعركة بالقرب من تل باشر في 28محرم 502هـ / 8 أيلول 1108م، وانتهت بهزيمة جاولي سقاوة وبلدوين.

والحادثة الثانية لهذا النوع من التحالف، كانت بعد عشرين عاماً من استيطان الصليبيين، حيث دفع الخوف وحب السلطة الأمراء المسلمين إلى طلب النجدة والمساعدة من الصليبيين الذين لم يكونوا أقل تخوفاً واستعداداً لملاقاة حملة السلطان السلجوقي بقيادة برسق، حيث أسرع

(22) – وليم الصوري: المصدر السابق، ج1، ص 398.
(23) – المصدر نفسه، ج2، ص 247.
(24) – المصدر نفسه، ج2، ص 247-248.
(25) – السرجاني، راغب: قصة الحروب الصليبية، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ط1، 2008م، ص 76.
(26) – الشيخ: المرجع السابق، 546-547.
(27) – ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص517.

روجر الأنطاكي إلى جمع جيوشه على نهر العاصي عند جسر الحديد للدفاع عن أنطاكية من جهة، ولمراقبة تطورات الموقف، ويرجع ذلك إلى أن الحملة تستهدف كليهما، تأديب وإخضاع الأمراء المسلمين أولاً، ومهاجمة الصليبيين ثانياً، فمن الطبيعي عند ظهور عدو مشترك أن يتفق الأعداء ولو ظاهرياً على مواجهته [28].

وقد وصفت المؤرخة أنا كومينا الصليبيين أبان قدومهم إلى المشرق العربي الإسلامي بقولها" إن الصليبيين جنس متميز، ولهم من الصفات: روح فردية مستقلة متهورة، ترفض رفضاً قاطعاً الانصياع إلى أنظمة فنون الحرب، فعندما توشك الحرب على الاشتعال ويوشك القتال على الوقوع، تراهم مندفعين بحماس لا يقاوم..... لكن على الرغم من هذا، فإنه بسبب وزن أسلحتهم، وما اتسموا به من تهور وعدم انتظام، نجد أنه من السهل إنزال ضربة بهم [29]، وبالفعل هذا ما حدث مع الأمير روجر في موقعة ساحة الدم سنة 513هـ/1119م حيث تجاهل تحذيرات كل من برنارد بطريرك أنطاكية وملك القدس بلدوين الثاني، واندفع لمواجهة جيش المسلمين بقيادة إيلغازي.

وقد كان الصليبيين أقل مهارة وخبرة في مجال العمارة والبناء والفنون، لا سيما بناء الحصون والقلاع، وهي التي كانت تمثل ركناً أساسياً في نظم الدفاع في تلك المنطقة طوال العصور الوسطى، فقد كانت القلاع والحصون تشكل عاملاً رئيسياً في خطوط الدفاع بين الجانبين، وكثيراً ما دارات الحروب بسبب تلك الحصون والقلاع[30]، التي كانت تمثل في كثير من الأحيان موقع استراتيجي للمواصلات، أو نقطة للجسس على الطرف الأخر، والأمثلة على ذلك، تتجلى في الصراع حول امتلاك قلعة بارين، وأيضاً عندما ضعفت الإمارة وعجزت عن الدفاع عن نفسها، منح بوهيموند الثالث فرسان الداوية حصن بغراس الذي يربط بين منطقة كيليكيا وإمارة أنطاكية[31].

### 3-الحياة الفكرية:

إن تأثير دعوة البابا أوربان الثاني للأوروبيين للاشتراك في الحملة الصليبية الأولى، لم يقتصر على الحكام والعامة، بل تعداها إلى اشتراك مؤرخين، سجلوا ودونوا أعمال الصليبيين منذ قدومهم إلى المشرق العربي الإسلامي، فهم شاهد عيان لأحداثها ومن أتباع قادتها، الأمر الذي يسر لهم الاطلاع على مختلف القرارات الصليبية.

ويأتي في مقدمة المصادر اللاتينية المؤرخ المجهول صاحب كتاب "يوميات صاحب أعمال الفرنجة" الذي كان تابعاً لبوهيموند الأول، وهو سليل إحدى الأسر النورماندية، وقد أوقف معظم مواد الكتاب على حياة كل من بوهيموند وتانكريد، ومن المصادر اللاتينية كتاب " الحرب الأنطاكية " للمؤرخ وولتر المستشار، الذي وضع كتابه بناءً على رغبة روجر أمير أنطاكية، وترجع أهمية الكتاب إلى أن صاحبه كان من لاتين أنطاكية، وكان على علم تام بجغرافية وأحداث بلاد الشام، وكتابه يعالج السنوات من 1114م إلى 1122م ولا سيما موقعة ساحة الدم، وهي الفترة التي بلغت فيها إمارة أنطاكية أقصى اتساع لها[32]، كما أن الصليبيين وجدوا في أنطاكية مجتمعاً متعلماً من أصل يوناني وسرياني وأرمني[33]، اعتمدوا عليه في الوظائف الحكومية.

وليس ثمة شك في أن ثمة اتصالات حضارية وثقافية تمت بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام، فانسابت كلمات عربية إلى اللغات الأوروبية ولا سيما ألفاظ أنواع المحاصيل الزراعية التي لم تكن معروفة لدى الصليبيين في أوروبا، ولم يزدهر الجانب الفكري والثقافي لدى الصليبيين، حيث إن ظروف إقامتهم في بلاد الشام في السادس الهجري/ الثاني عشر، لم تمكنهم من الالتفات إلى الجوانب الثقافية وسط محيط واسع من

(28) – جوني، وفاء: معركة ساحة الدم، مقال في مجلة دراسات تاريخية، العدد 97-98، آذار/ حزيران، 2007م، ص 147.
(29) – أنا كومينا: الألكسياد، الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ج6، ص 54-55.
(30) – الشيخ: المرجع السابق، 540-541.
(31) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج2، ص 653.
(32) – عطية: المرجع السابق، ص 33-34.
(33) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج3، ص 356.

الأعداء يتربصون بهم الدوائر ويتحينون الفرصة للانقضاض عليهم، كل ذلك لم يفسح لهم المجال للاستقرار والأمان الذي هو شرط ضروري لبزوغ العلم والثقافة[34].

### 4-الحياة الاقتصادية:

الحياة الاقتصادية لأي مجتمع، هي الدعامة الأساسية في وجوده واستمرار بقائه، فتتطور الحياة الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة وتربية المواشي، أول ما ينعكس على قوة الدولة السياسية والعسكرية، بالإضافة إلى تحقيق الرفاهية الاقتصادية وتأمين الأمن الغذائي، لا سيما أن الإمارة النورماندية في أنطاكية لم يكن لها علاقات اقتصادية جيدة مع كل من المسلمين والبيزنطيين ويرجع ذلك إلى حالة الحروب التي لا تكاد تنطفئ في جبهة إلا وتشتعل في أخرى، حيث غلب على الإمارة الطابع العسكري.

يحتل قطاع الزراعة المرتبة الأولى في النشاط الاقتصادي قياساً على القطاعات الاقتصادية الأخرى من صناعة وتجارة [35]، فالأرض مصدر الثروة، واشتهرت أنطاكية ببساتينها ومراعيها كونها تقع في سهل العمق الذي يجري فيه نهر العاصي بالإضافة إلى وجود أنهار عدة كنهر عفرين والأسود والكبير الشمالي والسن، فانتشرت الزراعات على أطراف الأنهار، وتمثلت أهم المحاصيل بالقمح الغذاء الرئيسي للسكان والشعير بهدف تأمين غذاء المواشي بالإضافة إلى المحاصيل الأخرى كالزيتون والقطن والحمضيات والخضار والفواكه، حالها كحال الأقاليم المجاورة، "وأنطاكية عامرة لا خراب فيها أصلاً ولكنها أرض تزرع الحنطة والشعير تحت شجر الزيتون قراها متصلة ورياضها مزهرة ومياهها منفجرة" [36] وقد كان الإنتاج ونوع المحصول مرهون بالبيئة [37]، فمناخ أنطاكية متوسطي معتدل صيفا وشتاءً يتميز بأمطار شتوية غزيرة لقربها من البحر، وتجلى اهتمام الصليبيين بالزراعة بقيامهم بزراعة أراضي مدينة إعزاز وتقويتها عقب استيلاءهم عليها سنة 512هـ/1118م، بهدف أن يجعلوا منها نقطة لعملياتهم الحربية المقبلة على حلب نفسها، وبهدف استمالة الأهالي، كما تضمنت شروط الهدنة بين الأراتقة في حلب والصليبيين في أنطاكية على تقسيم المناطق الزراعية المحيطة بحلب بين الصليبيين والمسلمين[38].

وكانت أراضي إمارة أنطاكية النورماندية مقسمة إلى إقطاعات تمنح إلى كبار الأمراء والنبلاء، فبعد أن عسكر روجر بقواته في أرتاح، ضغط عليه النبلاء للتقدم بقواته خوفاً من سقوط أراضيهم في أيدي المسلمين، "وقد شجعه على ذلك بعض نبلاء هذه الناحية الذين لم يكن يدفعهم إلى ذلك رغبتهم في أداء خدمة للجيش، بل كانوا يطمعون في مجيئه حماية لأراضيهم الواقعة قرب معسكر العدو" [39].

وقد كان للأمير السلطة المطلقة بتوزيع الإقطاعات، فعقب إطلاق سراح بوهيموند الأول من الأسر سنة 496هـ/1103م، أبدى إعجابه بتانكريد ومحافظته على الإمارة وتوسعها، فمنحه إقطاعية صغيرة داخل الإمارة [40]، وحينما نجح تانكريد سنة 500هـ/1106م في الاستيلاء على أفاميا من الباطنية بمساعدة مصبح بن خلف بن ملاعب منحه إقطاع صغير مكافئةً له[41]، ومنح بوهيموند الثاني زوجته أليس مدينتي

(34) – الشيخ: المرجع السابق، ص 545-546.
(35) – عبد السلام، عادل وآخرون: جغرافية سورية الإقليمية، منشورات جامعة تشرين، اللاذقية، د-ت، ص 104.
(36) – ياقوت، الحموي (ت: 626هـ): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، ج1، ص 267.
(37) – خربوطلي، شكران وآخرون: الحضارة العربية الإسلامية، منشورات جامعة دمشق، 2006، ص 111.
(38) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج1، ص 323.
(39) – وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 349.
(40) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 70.
(41) – طقوش، محمد سهيل: تاريخ الحروب الصليبية، دار النفائس، بيروت ط1، 2011م، ص 203.

اللاذقية وجبلة، "زوجها الراحل – بوهيموند الثاني– كان قد أوصى لها في وصيته الأخيرة بهاتين المدينتين، لأنهما كانتا جزءاً من صداقها وقت زواجها منه " [42].

وفي مجال الزراعة كان الصليبيين أكثر حاجة لخبرة المسلمين والعناصر الشرقية من سريان وأرمن، نظراً لأن الزراعة والمنتجات الزراعية من مقومات الحياة الاقتصادية، وركناً هاماً من أركان القوة في الإمارات الصليبية، وإنهم لا بد لهم من مؤامة أنفسهم مع الظروف الجديدة في الشرق لزراعة محاصيل تختلف عما عرفوه في الغرب الأوروبي مثل الأرز والسمسم والثوم والليمون والبطيخ وقصب السكر، لذلك أظهر الصليبيون المرونة واللين في معاملة المسلمين الخاضعين لهم للاستمرار في زراعة هذه المحاصيل واكتساب الخبرة منهم لزراعتها ونقلها إلى الغرب الأوروبي[43].

ولقد تركزت تربية المواشي في أطراف السهول والهضاب وتمثلت أولاً بالأغنام والماعز والأبقار، وقد عمل الأمراء على تدعيم تربيتها وتوفيرها، فها هو ريموند دي شاتيون يخاطر بحياته ويغير على مناطق المراعي في الجزيرة قرب نهر الفرات، بهدف الاستيلاء على المواشي من خيول وجمال وقطعان ماشية " ثم إن الفرنج أغاروا على بلد عينتاب، فأخذوا التركمان، ونهبوا أغنامهم "[44]، كما اهتموا بتربية الخيول كونها أداة رئيسية في المعارك لا يمكن الاستغناء عنها، بالإضافة إلى أنها تشكل جزءاً كبيراً من حياة الفرسان، ولم يكن استخدام أي فرس للقتال، لأن فرس الحرب يختلف عن الفرس العادي، فالأول تم تدريبه بعناية بالغة على خوض المعارك ولهذا كان غالي الثمن، من الصعب استبداله، وفي العادة كان يتم اختيار فرس الحرب من نوع الذكور لقوته وفحولته[45]، وغالباً ما كانت تتضمن المفاوضات مع حلب تسليم خيول للصليبيين، "وعشرة رؤوس من الخيل"[46]، وأمير شيزر عندما عجز عن التصدي للحملة البيزنطية الصليبية عرض عليهم الانسحاب مقابل تقديم هدايا تتمثل في خيول عربية [47]، ويروي ابن العديم في أثناء غارة سوار نائب نور الدين على اللاذقية أنه استولوا على "مائة ألف رأس من البقر والغنم والخيل والحمير" [48]، مما يدل على غنى الإمارة بالمواشي.

أما بالنسبة للصناعة، فقد عملوا الصليبيين على تأمين الحاجات اليومية بالاعتماد على ما توفره البيئة شأنهم شأن المسلمين في الأقاليم المجاورة، وتمثلت الصناعة في عصر الزيتون لاستخراج الزيت، وطحن الحبوب وصناعة بعض الأواني الفخارية لاستخدامات المنزل، وصناعة بعض المنسوجات بهدف تأمين اللباس، " فكانت مصانعها تنتج الملابس الحريرية والسجاد والزجاج والفخار والصابون"[49]، حيث ذاع صيت الشام في صناعة الزجاج والتحف الزجاجية، لوفرة المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة، واحتلت أنطاكية وحلب ودمشق مكانة فائقة، كما اشتهرت أنطاكية بصناعة الخزف من الفخار[50]، وعندما تذوق الصليبيون قصب السكر لأول مرة خلال حصارهم لمدينة أنطاكية، عمدوا إلى زراعته سنوياً، وعندما ينضج يتم سحقه في هاون، ويصفون العصير، ثم يضعونه في أوان حتى يجمد ويتصلب، فيشبه الجليد أو الملح الأبيض، وقد أُستخدم السكر في العلاج وعلى الموائد الشهية، بدلاً من عسل النحل الذي كان شائع الاستعمال في الغرب الأوروبي، حيث

(42) – وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، ص 75.
(43) – الشيخ: المرجع السابق، ص 542-543.
(44) – ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص 625.
(45) – الحويري: المرجع السابق، ص 168.
(46) – ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص 520.
(47) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 251.
(48) – ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص 625.
(49) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 35.
(50) – الحويري: المرجع السابق، ص 133.

كان إهداء قطعة من السكر في ذلك الوقت، يعني ذلك مدى الحب الشديد للمهدى إليه، كما اشتهرت صناعة استخراج زيت الزيتون إلا أنه لكم يكن يصدر إلى الغرب الأوروبي لتوفره هناك[51].

ومن الصناعات الهامة التي عرفت في بلاد الشام إبان الحروب الصليبية صناعة المنسوجات، وقد عرف الأوربيون صناعة السلع الكتانية والصوفية، ولكن مهاراتها الفنية كانت عاجزة في مصنوعات الحرير والقطن، لعدم وجود الحرفيين والصناع الماهرين، واقتصر استعمال الملابس المصنوعة من الحرير والقطن المطرزة بخيوط الذهب على الأمراء والنبلاء، واشتهرت أنطاكية ودمشق وحلب وطرابلس بهذه الصناعة، كما اشتهرت في أنطاكية صناعة الصابون[52].

واعتمد الصليبيون في تأمين احتياجاتهم من الأسلحة بالاعتماد على الأخشاب المتوفرة محلياً في صنع السهام والرماح والبحث عن المعادن لا سيما الحديد لاستخدامها في صناعة الدروع والسيوف، ولم يكن يتوفر لدى الصليبيين في أنطاكية حرفة صناعة السفن، فاعتمدوا على سفن المدن الإيطالية كجنوة والبندقية وبيزا في تأمين احتياجاتهم من السفن، حيث عقد تانكريد اتفاقاً مع الجنوية يقضي بقيامهم بقطع خطوط المواصلات بين القاعدة البيزنطية في قبرص والحامية البيزنطية في اللاذقية، ثم توجه لحصار اللاذقية براً واستولى عليها سنة 496هـ/1103م [53]، وقد استفاد الصليبيون من استيطانهم لبعض المناطق في المشرق العربي الإسلامي من التقدم العلمي والازهار الحضاري للمسلمين[54].

استفادت إمارة أنطاكية النورماندية من موقعها على ساحل البحر المتوسط، وسرعان ما برزت المدينة كمركز للتجارة، لوقوعها على طريق التجارة بين حلب وإقليم الجزيرة من ناحية، والغرب الأوروبي من ناحية أخرى، بالإضافة إلى ارتباطها بالطريق البري الذي يبدأ من القسطنطينية عبر جبال طوروس إلى كيليكيا ومن ثم إلى أنطاكية[55]، فضلاً مما اشتهرت به من صناعات الأقمشة والسجاد والزجاج والخزف[56]، ونشاطها الزراعي لوقوعها في سهل خصيب على ضفاف العاصي، وامتلكها واجهة بحرية عريضة على البحر المتوسط، يمتد من ميناء اسكندرون شمالاً إلى ميناء اللاذقية جنوباً [57].

بعد نجاح الصليبيون في الاستيلاء على أنطاكية، عقد بوهيموند اتفاقاً مع الجنوية في سنة 492هـ /14تموز 1098م، بموجب الاتفاق منحهم حق إقامة أحد الأسواق الخاصة بهم في مدينة أنطاكية، وملكية ثلاثين منزلاً من منازلها، فضلاً عن بئر مياه، وطبقاً لشروط الاتفاق أقاموا مستودعاً خصصوه لبضائعهم، مقابل تعهد الجنوية بمساعدة بوهيموند في الدفاع عن المدينة ضد أي عدو[58]، وبهذا الاتفاق ضمن بوهيموند دعم الجنوية له في حال الخلاف مع الإمبراطورية البيزنطية، كما هدف بوهيموند من هذا الاتفاق تحقيق الازدهار الاقتصادي للإمارة.

وكانت أهم الموارد المالية، ما يحصل عليه الصليبيون من أعمال السلب والنهب عن طريق الإغارة على القرى والقوافل الإسلامية، بالإضافة إلى الضرائب التي كان الصليبيون يفرضونها على كل من حلب وشيزر، بالإضافة إلى ما يحصل عليه الصليبيون من الضرائب على الحقول والمزارع الخاضعة لهم[59].

---

(51) – المرجع نفسه: ص 134.

(52) – المرجع نفسه: ص 136.

(53) – طقوش: تاريخ الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 91.

(54) – خربوطلي: المرجع السابق، ص 366.

(55) – الحويري: المرجع السابق، 122-123.

(56) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج1، ص 382.

(57) – عطية: المرجع السابق، ص 129.

(58) – الكناني، مصطفى حسين محمد، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1981م، ص 139-140.

(59) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج2، ص 480.

وقد اضطر الصليبيون إلى صك عملات جديدة من الذهب بدلاً من العملات الأوروبية، لتصبح رمزاً لوجودهم في بلاد الشام من ناحية، ويقبل المسلمون التعامل بها معهم من ناحية أخرى[60]، وبهدف تحقيق الاستقلال المالي للإمارة، فصك تانكريد المؤسس الثاني للإمارة عملة تحمل عبارة (خادم الرب)، وعمل على تحقيق الثراء على حساب كل من البيزنطيين والمسلمين[61].

ولجأ الأمراء الصليبيين إلى فرض الجزية على جيرانهم المسلمين بهدف تأمين الأموال لمشاريعهم الاستيطانية كما فعلوا مع بني منقذ في شيزر ومع حلب أيضاً، ففي أوج قوتهم في عهد روجر قاموا بفرض الرسوم على طريق حج المسلمين " وهادن ياروقتاش صاحب أنطاكية روجار، وحمل إليه مالاً، وسلم إليه حصن القبة، ورتب مسير القوافل من حلب إلى القبلة عليه وأن يؤخذ المكس منهم له" [62].

وكانت الحركة التجارية مع المسلمين والبيزنطيين ضعيفة جداً، نتيجة حالة العداء والحروب التي لا تتوقف، ومع ذلك وجد بعض التجار، إلا أنهم كانوا يمنعون من عملهم وقت الحروب، حيث تم إلقاء القبض على التجار والمسافرين المسلمين بهدف منع تسريب أخبار الصليبيين في أثناء الحملة البيزنطية الصليبية على المسلمين سنة 533هـ/1138م [63].

وخلال السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كانت مدن وموانئ بلاد الشام مراكز لتجميع السلع، أقام فيها التجار للإشراف على مصالحهم التجارية، وازدهرت على الساحل بعض المدن الواقعة تحت سيطرة الصليبيين ولا سيما أنطاكية واللاذقية وطرابلس وعكا، وفي الداخل كانت حلب ودمشق وحماة وحمص أهم المراكز التجارية للمسلمين[64].

وكانت اللاذقية خير ميناء في شمال بلاد الشام، نظراً لأنه صالح لكل مناخ وطقس، على الرغم من أن ميناء السويدية [65] الواقع على مصب نهر العاصي كانت أكثر منالاً لأنطاكية وحلب، وفضلاً عن ذلك، فإن ميناء اللاذقية كان على اتصال سهل مع جزر رودوس وقبرص في الحوض الشرقي للبحر المتوسط[66].

وشملت السلع التي وصلت إلى أسواق بلاد الشام، العطور والبخور والعنبر والمسك وقد ورد معظمها من أسواق الشرق الأقصى، كما اشتهرت تجارة العبيد أو الرقيق، وهي تجارة الإنسان بأخيه الإنسان، وكانت بأيدي التجار الإيطاليين ولا سيما البندقية وجنوة، أما السلع التي كانت تأتي من الغرب الأوروبي إلى أسواق بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية فقد تمثلت في الثروات الطبيعية ولا سيما الحديد والنحاس، بالإضافة إلى الصوف والعبيد[67].

### 5-الحياة الاجتماعية:

بنيت أنطاكية عام 300ق.م على يد سلوقس أحد قادة الاسكندر المقدوني، والهدف من بناءها، نشر الثقافة اليونانية، وتشجيع اليونانيين على الاستقرار في أراضي الدولة السلجوقية [68]، فضمت المدينة اليونانيين إلى جانب سكان سوريا، وفي عام 64ق.م خضعت المدينة

(60) – الشيخ: المرجع السابق، ص 555.
(61) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص64.
(62) – ابن العديم: المصدر السابق، ج2، ص 543.
(63) – المصدر نفسه، ج2، ص 626.
(64) – الحويري: المرجع السابق، ص 129.
(65) – على البحر المتوسط، وهي واحدة من المدن اليونانية التي بناها الاسكندر المقدوني وسميت باسمه. عبد السلام: الأقاليم الجغرافية السورية، المرجع السابق، ص 232.
(66) – المرجع نفسه، ص 130-131.
(67) – الحويري: المرجع السابق، ص 134-136.
(68) – سارة، خليل: تاريخ الوطن العربي في العصور الكلاسيكية، منشورات جامعة دمشق، 2005م، ص 160.

للاحتلال الروماني، فضمت أيضاً الروم البيزنطيين، وفي عام 17هـ/637م فتحت المدينة على يد أبو عبيدة بن الجراح الذي أرسل إلى الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب " وأعلم يا أمير المؤمنين أن العرب قد نظرت إلى بنات الروم، فدعتهم أنفسهم إلى التزوج، فمنعتهم من ذلك، وإني أخشى عليهم الفتنة إلا من عصمه الله، فعجل إلي بأمرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين"[69]، وفي رد الخليفة عمر بن الخطاب على كتاب أبو عبيدة " وأما قولك إن العرب أبصرت نساء الروم فرغبت في التزوج، فمن أحب ذلك فدعه إن لم يكن له أهل بالحجاز" [70].

وقبيل الاحتلال الصليبي، كانت المدينة تضم اليونانيين والروم بالإضافة إلى السريان والأرمن، والمسلمين من العرب والتركمان، وقد عمل ياغي سيان أمير أنطاكية على أبعاد المسحيين من أنطاكية خوفاً من خيانتهم وتعاطفهم مع أبناء دينهم، وأعقب دخول الصليبيون إلى المدينة قتل كل من صادفوه من المسلمين فلم يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل، وبذلك أختفى الوجود العربي الإسلامي من أنطاكية، ويصف ستيفن رانسيمان حال المدينة عقب الاستيلاء عليها " وأما سكان الإمارة فكانوا كلهم من تقريباً من المسحيين الذين يتألفون من اليونانيين، والسريان الأرثوذوكس، والسريان اليعاقبة، والأرمن" [71].

وتألف المجتمع الصليبي في أنطاكية من الطبقات الآتية:

1- الطبقة الحاكمة من النبلاء والفرسان، وهؤلاء كانوا قلة، وكانت هذه الطبقة بمثابة العمود الفقري للمجتمع الصليبي، وكانت الحرب هي الشغل الشاغل لتلك الطبقة، وقد اعتمدت على القلاع والحصون التي كانت تمثل الأساس المادي للسيادة، والصفات التي يجب أن يتصف بها الفارس، تتمثل في التمسك بالفضيلة والقدوة الحسنة في تصرفاته وأفعاله، إذ كانت الفروسية تعني لدى الفارس الحرب والعقيدة والبسالة، إلى جانب الشجاعة والإخلاص والكرم[72].

2- طبقة المحاربين من الصليبيين، وهؤلاء عبارة عن عامة الصليبيين، الذين شاركوا في الحملة الصليبية وتزوجوا من المسحيين الشرقيين.

3- طبقة الأفراخ، وتعني الأبناء المنحدرين من الزيجات المختلفة، بين الفرنجة والمسحيين الوطنيين من أرمن وسريان[73].

4- التجار الإيطاليين، وهؤلاء تركزوا في المدن ولا سيما أنطاكية واسكندرون واللاذقية والسويدية يتكلمون الإيطالية ولا يختلطون بغيرهم إلا في نطاق المعاملات التجارية[74].

5- طبقة العبيد والأقنان، فتحت الحروب الصليبية الباب على مصراعيه أمام عشرات الآلاف من الأقنان، الذين تركوا أرضهم في الغرب الأوروبي بحجة الاشتراك في الحروب الصليبية، مدفوعين بالأمل في حياة جديدة أفضل من حياتهم في الغرب، فقد قام المجتمع الصليبي على علاقة سيد حر وقن خاضع مقيد بالأرض، وكان عليه تنفيذ أوامر الإقطاعي[75].

6- طبقة المسحيين المحليين من أرمن وسريان وبيزنطيين، وكان بينهم وبين الصليبيين كراهية، لأن الصليبيين اعتمدوا المذهب الكاثوليكي بدلاً من المذهب الأرثوذكسي.

(69) – الواقدي: من كتاب فتوح الشام، تعليق: ماجد اللحام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1986م، ص 152.
(70) – المصدر نفسه، ص153.
(71) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 35.
(72) – الحويري: المرجع السابق، ص 78.
(73) – المرجع نفسه، ص 81.
(74) – عاشور: الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج3، ص 492-494.
(75) – الحويري: المرجع السابق، ص 85-86.

وقد استقر الأرمن قبيل الحروب الصليبية في منطقة كيليكيا والرها وأنطاكية واللاذقية وأرتاح، ولقد استخف الأرمن بالإمبراطورية البيزنطية بعد هزيمتها في موقعة ملاذكرد سنة463هـ/1071م، وقد رحبوا بمجيء الصليبيين إلى المشرق العربي الإسلامي، وساعدوا تانكريد في الاستيلاء على مدن كيليكيا، التي كان معظم سكانها من الأرمن، وعندما اقترب الصليبيون من أنطاكية، بادر الأرمن إلى تقديم المساعدة لهم[76].

لقد تمكن الصليبيون من الاحتفاظ بنفوذهم السياسي لمدة تقرب القرنين من الزمان، إلا أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم الغربية، وإنما اضطروا بحكم قلتهم العددية أن يتفقدوا كثيراً من صفاتهم الأصلية، فاكتسبوا صفات الشرق الراقية، وهنا يمكن القول، إن الصليبيين انتصروا بالقوة العسكرية على شعوب أعرق منهم حضارةً وتقدماً وعلماً، إلا أنهم تأثروا بتلك الشعوب[77].

كان من أحد أسباب الحروب الصليبية ما روي عن سحر الشرق وجماله وغناه، حيث كانت حياته الفاخرة تصدم الأوربيين، فقد كانت الحياة في أوروبا قبيل الحروب الصليبية بسيطة متقشفة، إذ كانت الملابس مصنوعة من الصوف ونادراً ما كانت تغسل، وكان الأثاث حتى في أفخم القصور خشبياً، وكانت السجاد مجهولاً لديهم، وكان الطعام بسيطً جداً يفتقر إلى النوعية ولا سيما في فصل الشتاء، وسرعان ما اصطبغت ملابس المستوطنين بالصبغة الشرقية الفاخرة، فأرتدى الرجال الحرير والعمامة في فصل الصيف، ومعطفاً مصنوع من الكتان في فصل الشتاء، واتخذت ملابس النساء الزي التقليدي الذي يتألف من ثوب داخلي طويل (روب) ومعطف قصير أو سترة(بلوزة)، وكانت ثياب الأميرات مطرزة بخيوط الذهب وأحياناً المجوهرات، وفي الشتاء يرتدين الفراء، وكن خارج المنزل يضعن خماراً بهدف الحماية من أشعة الشمس لا من أجل العفة [78].

ولم تكن الاتصالات الاجتماعية بين الصليبيين والمسلمين قاصرة على تأثر الصليبيون بالعادات والنظم الشرقية في المأكل والملبس والمشرب، وإنما تعدى ذلك إلى التزاوج بين الجانبين، حيث أقبلت طبقة العامة من الصليبيين على الزواج من الشرقيات ولا سيما من الأرمن والسريان، كما تزوج الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين من الأميرة الصليبية ماري، وقد نتج عن هذه الزيجات تغيرات في التركيبة السكانية في المجتمع الصليبي[79].

وقد عرف المستوطنون معدات الطعام التي كان يستخدمها المسلمون واستخدموا الخزف المزخرف والخزف الصيني المستورد، ولقد تأثر الصليبيون بمناخ بلاد الشام الذي يتصف بالبرودة شتاءً إلا أن فترة دوامه أقل من الشتاء الأوروبي، وأما الصيف الطويل الحار، فسرعان ما تعلم المستوطنون منه أنه لا غنى لهم عن ارتداء ملابس مختلفة وتناول أطعمة مختلفة [80].

وكان من وسائل الترفيه والتسلية عند النبلاء الحمامات الشرقية، والمقامرة، وسماع المغنيين، وكذلك انتشرت لعبة النرد، حيث حرص الأمراء على حمل صناديق النرد خلال الغزوات والحروب، بالإضافة إلى ذلك زوال الصليبيين الصيد[81]، فيروي وليم الصوري في أثناء حملة الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين على شيزر، أخذ كل من أمير أنطاكية ريموند وأمير الرها جوسلين باللهو "وبينما كان هؤلاء منصرفين كل الانصراف إلى الصراع العنيف إذا بالأمير والكونت – وكان شابين في معية العمر – يستسلمان لنزوات الشباب الذين في مثل عمرهما، فانكبا على ألعاب القمار انكباباً أضر بمصالحهما، وزيادة على ذلك فقد دفعهما عدم رغبتهما في مواصلة القتال إلى إغراء سواهما بالتكاسل " [82].

---

(76) – المرجع نفسه، ص 93.

(77) – المرجع نفسه، ص 75.

(78) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 364-366.

(79) – الشيخ: المرجع السابق، 549-550.

(80) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 365.

(81) – الحويري: المرجع السابق، ص 80.

(82) – وليم الصوري: المصدر السابق، ج3، 161.

وقد أولع الغرب بالسلع الشرقية، واشتد اقباله عليها، خاصة التوابل التي حازت المكانة الأولى بين السلع، وقد اعتاد الصليبيون على استعمالها في الأطعمة لتحسين جودة الطعام أو استخدامها كعقار طبي، وقد أحدثت التوابل تغيراً كبيراً في عادات النبلاء والأشراف، وساهمت في توفير وسائل الراحة والرفاهية، واستعملت التوابل بصفة مستمرة في طهي الطعام وصنع النبيذ والبيرة، وإن ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعده الحظ على احتساء فنجان من شراب دافئ مزج بشيء من التوابل والبهارات، فالفلفل والجنزبيل وجوزة الطيب والقرنفل والقرفة كلها كانت مبعث انتعاش للقلوب ودواء للمرضى[83].

وفي مجال الطب، أُعجب الصليبيون كثيراً في بتقدم الطب الإسلامي، وكان يبعثون في طلب الأطباء المسلمين لمعالجة مرضاهم، نظراً لتخلف الطب عندهم[84]، حيث كان يعتمد على فكرة المعجزات ويرتبط برجال الدين ارتباطاً تاماً [85].

ومع مرور الزمن، أخذت حياة الصليبيين تنسلخ شيئاً فشيئاً عن الحياة الغربية، لتقترب كثيراً من حياة المجتمع الشرقي، فكثيراً ما وقع أمراء أنطاكية في الأسر، وعملوا معاملة طيبة ولقوا كل رعاية في الأسر، ومن هؤلاء بوهيموند النورماندي، ورينو دي شاتيون، وكثيراً من قادة الصليبيين وكبار رجالهم، وفي الحياة الاجتماعية أيضاً أُعجب الصليبيون كثيراً ببعض عادات المسلمين في الشرق ونظم حياتهم في بلاد الشام، فأخذوا عنهم فكرة الحمامات العامة، والحرص على النظافة الشخصية، واستعمال العطور وغير ذلك مما كان يتميز بها المسلمون[86].

### 6-الحياة الدينية:

كان العامل الديني أحد أهم الأسباب للحروب الصليبية، ولا سيما أن الدعوة لهذه الحروب، كانت من قبل البابا أوربان الثاني، حيث وعد البابا كل من يشترك في هذه الحروب بالغفران، ولعب هذا العامل دوراً كبيراً في حصار المدينة، ولا سيما قصة الحربة المقدسة التي زعم أحد الصليبيين بأنها الحربة التي قتل بها السيد المسيح، مما رفع الروح المعنوية لدى الصليبيين.

لم يكن لأمراء أنطاكية تثبيت حكمهم دون استغلال العامل الديني لدى الناس، حيث عمل بوهيموند الأول مؤسس الإمارة على إضفاء الصفة الشرعية لحكمه، فاستغل وصول رجل الدين دايمبرت إلى اللاذقية، ورافقه إلى بيت المقدس، حيث تم انتخاب دايمبرت لمنصب بطركية بيت المقدس، وبدوره قام البطريرك دايمبرت بتوكيل أمر إمارة أنطاكية لبوهيموند[87].

كان بطريرك أنطاكية يأتي في المرتبة الثالثة بعد كل من بابا روما وبطريرك القسطنطينية، وكان بطريرك أنطاكية هو الحاكم لجميع كنائس آسيا باستثناء فلسطين، وكان ينافس بطريرك القدس حول الإشراف على الشؤون الدينية في مدينة صور[88]، وكانت أراضي أنطاكية وطرابلس والرها تابعة كنسياً لبطركية أنطاكية[89].

(83) – الحويري: المرجع السابق، ص 132.
(84) – الشيخ: المرجع السابق، ص543.
(85) – عوض، محمد مؤنس: الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية، دار الشروق، عمان، ط1، 1999م، ص 112.
(86) – الشيخ: المرجع السابق، ص547-548.
(87) – وليم الصوري: المصدر السابق، ج2، ص 172.
(88) – جوني: المرجع السابق، ص 185.
(89) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج3، ص 359.

وكان بطريرك أنطاكية ينتخب عن طريق الهيئة العامة للكنيسة، لكن تعيينه في الواقع يتم بمعرفة الأمير الذي كان بمقدوره أن يعزله، وكان بطريرك أنطاكية يرأس أساقفة البارة وطرسوس والمصيصة، ولم تكن كنيسة أنطاكية على نفس المستوى من الثراء الذي كانت عليه كنيسة القدس التي تمتلك الكثير من القرى[90].

لعب رجال الدين دوراً كبيراً في تشجيع عامة الناس على القتال، واكتسبوا محبة الناس، ففي معركة حران سنة 498هـ/1104م اشترك كل من برنارد بطرك أنطاكية ودايمبرت بطرك القدس، وبندكت بطرك الرها[91].

ولعبوا دوراً كبيراً في حفظ الإمارة من التنازع والضياع والسقوط، وغالباً ما تولوا السلطة الفعلية للإمارة، لخلو عرش الإمارة ولا سيما بعد مقتل الأمراء أو أسرهم.

وعمل تانكريد على إضفاء الصبغة اللاتينية الكاثوليكية للكنسية التي كانت بزعامة برنارد، الذي تولى كرسي البطركية لخمسة وثلاثين عاماً، (494-530 هـ/ 1100-1135م)، عمل البطريرك برنارد على نصح الأمير روجر بعدم الالتحام مع المسلمين في موقعة ساحة الدعم، وانتظار وصول ملك بيت المقدس بقواته، وبعد مقتل روجر، تولى برنارد السلطة الفعلية في أنطاكية في ظل وصاية ملك القدس لحين وصول بوهيموند الثاني.

وبعد وفاته اختار العامة رجل الدين رادولف رئيس أساقفة المصيصة إحدى مدن كيليكيا، ليتولى كرسي البطركية، إلا أن الأساقفة لم يرضوا به، بحجة أنه تولى منصبه دون انتخاب كنسي، فعمل على التحالف مع الأميرة أليس زوجة روجر، ذات الميول الاستقلالية، واستغل وصول الأمير ريموند إلى أنطاكية، واشترط عليه أن يعلن الولاء له ويقسم يمين التبعية له، مقابل استلامه عرش الإمارة دون معارضة.

إلا أن الأمير ريموند بعد توليه عرش الإمارة رسمياً، عمل على تحريض رجال الدين المعارضين للبطريرك رادولف، وشجعهم على التوجه إلى روما للاعتراض على البطريرك رادولف بحجة أنه تولى منصبه دون انتخاب كنسي، وبالفعل تقرر خلع البطريرك رادولف وانتخاب أميري مكانه.

وغالباً ما لجئ أمير أنطاكية إلى البطريرك للتخلص من وعوده الخارجية، بحجة أنه ليس إلا وصي ولا يحق له التصرف في شؤون الإمارة إلا بموافقة البطريرك وعامة الناس، وهذا ما فعله ريموند عندما طالبه الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين بتسليم أنطاكية له.

وفي عهد الأمير رينو دي شاتيون، تغيرت الأمور كثيراً، نتيجة حالة العداء بينه وبين البطريرك أيمري، حيث استغل رينو دي شاتيون خلافه مع البطريرك أيمري، وطلب منه المال لتموين حملته على قبرص، إلا أن البطريرك رفض، فما كان من الأمير رينو أن قام بتعذيب البطريرك أيمري ودهن جراحه بالعسل وقيده بالسلاسل تحت أشعة الشمس المحرقة، إلى أن طلب ملك بيت المقدس بلدوين الثالث إطلاق سراحه[92].

وفي ظل ضعف إمارة أنطاكية وتعرضها لهجمات نور الدين محمود، وافق الأمير بوهيموند الثالث على تعيين بطريرك يوناني في أنطاكية مما أثار غضب رجال الدين الكاثوليك، وفي سنة 566هـ/1170م تعرض شمال بلاد الشام لزلازل، نتج عنه وفاة البطريرك اليوناني، وبذلك تخلص الصليبيون من الحكم الكنسي اليوناني، وتم عودة البطريرك الكاثوليكي أيمري[93].

(90) – المرجع نفسه، ج3، ص 360.

(91) – وليم الصوري: المصدر نفسه، ج2، ص 247-248.

(92) – يوحنا كينا موس: أعمال يوحنا ومانويل كومنين، الموسوعة الشامية، إشراف: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، 1995م، ج29، ص 181.

(93) – ستيفن رانسيمان: المرجع السابق، ج2، ص 445-446.

**الخاتمة:**

العلاقات بين المسلمين والصليبيين لم تكن دائماً صراعات وحروب فقد تخللها في بعض الأحيان علاقات تجارية بحكم إنشاء الصليبيين إمارتهم في المشرق العربي الإسلامي، ومجاورتهم لإمارات المسلمين، لقد تمكن الصليبيون من الاحتفاظ بنفوذهم السياسي لمدة قرنين من الزمن حافظوا فيها على نظامهم في الحكم والإدارة والحياة العسكرية والدينية، إلا أنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بعاداتهم وتقاليدهم الغربية، وإنما اضطروا بحكم قلتهم العددية أن يفقدوا كثيراً من صفاتهم، ويكتسبوا صفات المشرق العربي الإسلامية الراقية، وهنا يمكن القول، إن الصليبيين انتصروا بالقوة العسكرية على شعوب أعرق منهم حضارةً وتقدماً وعلماً، إلا أنهم تأثروا بتلك الشعوب بتقاليد وثقافة المجتمع العربي الإسلامي وبإنجازاتهم الاقتصادية.